

ترقيه نحو الفكر المجرد الكليّ ، ولكنك واجد من الصياغات المطلقة ما يتحدّانا ويتحدى بعض ثقافتنا المعاصرة في أصول الحكم وفلسفة المناهج ، أدركها أصحابها في ضرب من الوعي النقديّ الحادّ ، ولا شك أنّ من ثمار هذه السّنة المعرفيّة اقتدار ابن خلدون على مسك أعنة المناهج والقبض على مجامعها في رؤية موحّدة هي التي مكّنته من تحديد أصوليّ لعلم المنطق في مبدئه وتشكله وإخصابه^(٤).

فإذا صحّ عندك ما افترضنا أنّه سمة نوعيّة تطبع الأصوليّة العربيّة عامّة وسلمت معنا - سواء بالاستدلال أو بالمصادرة - بأنّها أصوليّة توليديّة لأنها تنجب فلسفة في العلوم ونظرية في الإدراك ، تبين لك كيف ان ابن خلدون ما كان إلا ثمرًا طبيعيًا لنمط الحضارة التي أنشأته ، فالتفكير النقديّ العربيّ توليديّ كما عرفت فهو إذن مثير خصيب وثمرته هي ابن خلدون ذاته ، ولكن ابن خلدون لا يكون إلا توليديًا لذلك كانت أصوليته ثمرة أنجبت ، في مخاضها مع معرفة التاريخ ، علم العمران وأنجبت بعد لقائها بوليدها منظومة المعارف الكليّة .

على أنّنا إذا رمنا نشأة لهذا الطابع التوليديّ في حدّ ذاته أو حاولنا فكّ أسراره التكوينيّة عزوانه ابتداء إلى تركّز سمة الاختباريّة في الفكر العربيّ ، وتكامل ضوابطها ، ممّا يسّر لها القبض على قطبي المعرفة المتواصلة : قطب المحسوس وقطب المجرد ، وليس من همّا في هذا السّياق إثارة جدل التّكامل أو التّنافر بين المتصورين

(٤) المقدمة (دار إحياء التراث العربي - بيروت) ص ٤٧٨ ، ٤٨٥ ، ٤٩١ ، ٥١٤ ، ٥١٥ .